

الغابات وأثرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الإسلامي.

د. داودي الأعرج.

المركز الجامعي نور البشير، البيض، الجزائر.

البريد الإلكتروني: daouidi.r@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2018 / 12 / 04؛ تاريخ القبول: 2018 / 12 / 13.

الملخص:

تعتبر الغابات أحد شرايين الحياة الاقتصادية والاجتماعية منذ الخليقة؛ وبناءً على ذلك، نقدم ورقة بحثية نحاول من خلالها كشف واقع الغابات ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط، وإبراز مدى تأثيرها على المجتمع ومساهمتها الفعالة في اقتصاديات الدول القائمة ببلاد المغرب؛ والجدير بالذكر أن موضوع الغابات وارتباطه الوثيق بكافة جوانب الحياة البشرية، والذي يعد من المواضيع المميزة التي لا تزال تحتاج إلى استقطاب اهتمام الباحثين، وهذا يستدعي كشف أهمية الغابات في حياة مجتمع الحاضرة والبادية على حد سواء، والوصول إلى تشخيص مقدار مستوى إسهاماتها في مجال الفلاحة والصناعة والتجارة؛ وعلى العموم هذا ينم على أن الغابات تعد أحد أهم ركائز الأنشطة البشرية ببلاد المغرب.

الكلمات المفتاحية: الغابات؛ الفلاحة؛ الصناعة؛ التجارة؛ المجتمع.

Abstract:

Forests are considered as one of arteries economic and social since old ages; Building on this I present my paper in order to detect the happening forests in Maghreb countries during the era intermediary, And

showing extension her impact on the society and her contribution effective in economists the upright vines in countries of Maghreb.

Forests subject is reattached by all kinds of humanity life as a distancedful staying for researchers interest so that cleared it's importance of forests in both of the civil or rural life and arrived to diagnosing the level of it's participation on agricultur industry and trade.

Generally it maybe that forests is the axial of human activities in Maghreb countries.

Keywords: the forests; the peasant; the industry; the commerce; the society.

مقدمة:

يعد موضوع الدراسة من المواضيع الهامة لكونه يتعلق بالتاريخ والتراث الاقتصادي والاجتماعي ببلاد المغرب الإسلامي، وتكمن أهميته في تأثير الغابات على الاقتصاد والمجتمع وعناية الدولة بها؛ وبرزت أهمية الغابات في كونها أهم الموارد التي تتدرج ضمن الحاجيات والمتطلبات الضرورية للسكان، ولا تقوم الحضارة الإنسانية إلا بتوفرها، لأنها تعد أحد أهم المقومات الأساسية في البناء والعمارة، وكذلك الأدوات والوسائل التي يستعين بها الناس في حياتهم اليومية؛ فلا يمكن الحديث عن الإنسان والحضارة دون التطرق إلى الغابات ومنافعها في الحضارة البشرية.

وبناءً على ذلك، وقع الاختيار على موضوع الغابات ودورها في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ببلاد المغرب، باعتباره أحد أهم المواضيع التي ترتبط بتاريخ وحضارة المغاربة؛ ولابد من التأكيد أن ندرة الدراسات في مثل هذا النوع من المواضيع الجديرة بالاهتمام والبحث، يدفعنا إلى الاجتهاد في كشف الغطاء عن جانب من جوانب الحضارة المغربية؛ وتعد الغابات المورد الأساسي لمادة الخشب، التي ارتبطت بحياة الإنسان المغربي ولا يمكنه الاستغناء عنها، لأنها صارت عاملاً حيويًا في الحضارة الإنسانية عموماً والمغربية خصوصاً.

ومن هذا المنطلق تتجلى أهداف الدراسة التي تتبع من أهمية الغابات، التي تعتبر مأوى للكثير من أنواع الحيوانات، وشكلت عاملا حيويا في حياة الناس إما طلبا للمعاش أو طلبا للمتعة والترفيه، والأهم من هذا كله يتضح الهدف جليا من خلال أهمية ما تنتجه الغابات من خشب، الذي يعد مادة أولية ضرورية تقوم عليها الكثير من الصناعات كالصناعة المنزلية والحربية والطبية وغيرها، كما أنها تندرج ضمن السلع والبضائع القيمة التي يكثُر عليها الطلب، والتي تتجاوز أسواقها حدود بلدان المغرب الإسلامي.

في ظل المصادر المتوفرة بين أيدينا، نحاول وضع تصور شامل لوضع الغابات دون الإغفال عن إسهامها في الاقتصاد والمجتمع خلال العصر الوسيط؛ وقد أثار الموضوع الإشكال التالي: كيف يمكن وضع تصور شامل لواقع الغابات وأبعادها الاقتصادية والاجتماعية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط؟ وللإجابة على هذا الإشكال نطرح جملة من الأسئلة، تمثلت في: كيف كان وضع الغابات ببلاد المغرب؟ وفيما تتجلى إسهاماتها في الاقتصاد؟ وأين تكمن أهميتها في المجتمع المغربي؟

في سياق الدراسة لابد من جمع وقراءة كافة المصادر والدراسات التي لها علاقة بالموضوع، والتي خلقت تصورا شاملا لدينا، ساهم ذلك في وضع مسارات لهذه الدراسة، وبناءً على ذلك وضعنا عناصر ساهمت في الإحاطة بالموضوع، تمثلت في:

- وضع الغابات في بلاد المغرب.

- إسهام الغابات في الاقتصاد.

- أهمية الغابات في المجتمع.

1 - الغابات في بلاد المغرب:

امتلك بلاد المغرب ثروة غابية متنوعة، امتدت على طول أقاليمها من حدها الشرقي إلى غاية البحر المحيط في حدها الغربي، وقد امتازت بتنوع شجرها وجودته. ومن هنا نتساءل: كيف كان وضع الغابات ببلاد المغرب؟ وما مدى

اتساعها وتنوع شجرها ونباتها؟ وهل بالإمكان وضع تصور لخريطة غابية ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط؟

الجدير بالاهتمام ما نقلته العديد من المصادر حول وفرة الغابات وامتدادها عبر أقاليم بلاد المغرب، والتي امتازت بالكثافة والكثرة واحتوائها على أصناف كثيرة من أجود أنواع الشجر والنبات كشجر الزان، والصنوبر، والعرعر، والأرز، والبلوط، والقرظ، وغيرها من أنواع الشجر الجيدة، التي تدخل في العديد من الصناعات ولها قيمة تجارية ومنفعة اجتماعية؛ وقد أجمعت معظم المصادر على امتلاك بلاد المغرب غابات كثيرة عظيمة ومتصلة تجود بشتى أنواع الشجر، فقد سجل الرقيق القيرواني (توفي في النصف الأول من ق 5 هـ / ق 11 م) إعجابه بذلك حين وصف بلاد المغرب، بقوله: "... فكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلا وقرى متصلة ..." (الرقيق القيرواني، 1994: 48، 49).

وقد أشادت الروايات التاريخية بكثرة الخيرات والنعم، ومن ذلك اتساع المجال الغابي، فقد تضمنت بعض المصادر معلومات قيمة تفيد بازدهار البناء والعمارة، ووفرة الغابات واتصالها دون انقطاع من طرابلس بإفريقية شرقا إلى طنجة بالمغرب الأقصى غربا (ابن خلدون عبد الرحمن، 2003: 6، 128)؛ وقد أفادت كتب الجغرافية بوصف دقيق لبلاد المغرب وذكرت أنها كلها بلاد عامرة بها مدن وقرى، والضياح والمزارع متصلة (ابن حوقل، 1939: 83).

وما يثير الإعجاب امتداد الغابات على سفوح الجبال والأودية وتغطيتها لمجال جغرافي واسع يمتد من حدود مصر شرقا إلى البحر المحيط غربا (شوقي ضيف، 1995: 21)، وقد كشفت بعض كتب السير والتراجم عن وجود غابات كثيفة ذات أشجار ملتفة تعيش فيها أنواع مختلفة من الحيوانات (الشماخي، 2009: ج 2، 264)، كما أفادت كتب الجغرافية بكثافة الغابات، التي غطت أرجاء واسعة من إفريقية مثلما كان الحال في قايص والمناطق المحاذية لها، التي وصفت بكثرة غاباتها الملتفة والمتصلة وحدائقها المصطفة (الإدريسي، 2010: 1، 279).

ولم يكن المغرب الأوسط وبلاد الزاب أقل حظا، بل امتازت هذه البلاد بثروة غابية عظيمة، فقد امتدت الغابات في جبال وأودية طينة (الإدريسي، 2010: م 1، 263)؛ وانفردت بسكرة عن غيرها بغاباتها الكثيفة المتصلة التي يزيد امتدادها على ستة أميال (مؤلف مجهول، دون تاريخ: 173)؛ وكذلك عنابة والمناطق المحاذية لها التي اشتهرت بكثرة غاباتها وتنوع شجرها، وقد امتازت منطقة عنابة بوفرة شجر الزان وجودته، الذي كان يحمل إلى إفريقية لكثرة الطلب عليه (البكري، 2003: م 2، 233)؛ ولم تكن بجاية والمناطق التابعة لها أقل شأنا من غيرها، فقد اشتهرت بكثرة شجرها الذي غطى الجبال والأودية خاصة جبل ميسون المطل على المدينة، التي اشتهرت بكثرة دور الصناعة وتنوعها، بفضل ما جادت به المنطقة من وفرة الشجر وتنوعه (الإدريسي، 2010: م 1، 260).

فضلا على ذلك، اكتسبت مناطق أخرى شهرة واسعة بفضل اتساع غاباتها والتفافها حول المدن والقرى مثلما كان حال مدينة فكان والمناطق المجاورة لها، التي عرفت بكثافة الغابات خاصة بجبل أوشيلاس (البكري، 2003: م 2، 263)؛ وقد حظيت تاهرت وما جاورها بكثرة النعم والخيرات، ومن هذه النعم وفرة الغابات وكثرة الشجر والنبات، وما يثير إعجاب الزائرين للمنطقة التفاف الغابات بالمدينة، والتي أحدهت بها من كل الجهات (المقدسي، 1906: 229)؛ والجدير بالاهتمام إجماع العديد من المصادر على كثرة المقومات الطبيعية وتعدد النعم بتلمسان والمدن والقرى المجاورة لها، ومن نعم الطبيعة ومقوماتها الغابات، التي امتدت عبر الجبال والأودية وغطت أرجاء واسعة من هذه المناطق (ابن حوقل، 1939: 89؛ الإدريسي، 2010: م 1، 248؛ مؤلف مجهول، دون تاريخ: 176؛ الزهري، دون تاريخ: 113، 114).

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد، بل اكتسب المغرب الأقصى شهرة واسعة بفضل كثافة الغابات وامتدادها عبر كافة جهات الإقليم، حيث شهدت المناطق المحيطة بمدينة فاس والأقاليم كثرة الغابات والحدائق (ابن حوقل، 1939: 79؛ الإدريسي، 2010: م 1، 243)، والتي كانت أيضا تكسوا جبل

درن، واحتوت على أنواع مختلفة من الشجر غطت سفح الجبل والأودية المحاذية له، وهذا الجبل يمتد من السوس الأقصى إلى طرابلس بإفريقية مروراً بالمغرب الأوسط، وكان يسمى عند سكان تاهرت بجبل جزّول، بينما يسمى عند سكان الزّاب بجبل أوراس، وعند سكان إفريقية بجبل نفوسة نسبة لقبائل نفوسة التي تستوطن الجبل، وهو موحد الغابات كثيف الشجر، ولغاباته منافع جمة لسكان بلاد المغرب (اليقوبي، 1890: 149؛ الإدريسي، 2010: م 1، 229)؛ وهذا كان حال الكثير من المدن والقرى والمناطق المحيطة بها كمدينة أغمات، واكسيس، وقرية أم الربيع، وكافة المناطق الممتدة على طول وادي أم الربيع، التي تميزت بغابات كثيفة ملتفة ومتنوعة الشجر والنبات كالطرفاء، والأنشام، والعليق، وكذلك مأوى لعدد كبير من أنواع الحيوانات المفترسة والمتوحشة (الإدريسي، 2010: 231، 237، 238).

وفي الختام، لا يمكن وضع تصور شامل ودقيق للمجال الغابي وامتداداته عبر كامل أرجاء بلاد المغرب، رغم ما توفر بين أيدينا من معلومات قيمة تفيد بالثروة الغابية، التي كانت تزخر بها أقاليم بلاد المغرب، ولكن على العموم نقر بوفرة الغابات التي اشتهرت بأنها غابات كثيفة ملتفة ومحدقة بالمدن والقرى، لها فوائد اقتصادية واجتماعية جمة، وقد حاولنا قدر المستطاع تشخيصها وإبراز منافعها في باقي الدراسة.

2- إسهام الغابات في الاقتصاد:

يعتبر الاقتصاد شريان الحياة، وأحد أهم مقومات الدولة والمجتمع، وليس بالإمكان تحقيق البناء والعمارة وتقدم الدولة ورفاهية المجتمع، إلا باقتصاد قوي يمتلك عائدات مالية ضخمة؛ وقوام الاقتصاد يتوقف على الأنشطة الفلاحية والصناعية والتجارية، التي ترتبط بالإمكانات والمقومات الطبيعية ومن أبرزها الغابات. ومن هنا نسأل: ما علاقة الغابات بالاقتصاد؟ وفيما يتجلى إسهامها في الإنتاج الصناعي والتجاري؟ وأين تكمن علاقتها بالإنتاج الفلاحي؟

لابد من إبراز فوائد الغابات وآليات استغلالها في الإنتاج وتطور الاقتصاد، الأمر الذي يدفعنا إلى تحديد مقدار حجم مساهمة الغابات في الأنشطة الاقتصادية؛

ولا يمكن التطرق إلى استغلال الغابات في الإنتاج الصناعي دون الحديث عن النجارة، باعتبارها أحد أهم ضروب الصناعة، التي تتطلب من أصحابها امتلاك المعرفة والمهارة لتصنيع الخشب بما يلبي متطلبات وحاجيات الناس، وقد تحدث عن ذلك العديد من أهل العلم، حيث أفادت بعض المصادر بمعلومات قيمة عن حرفة النجارة وآليات العمل التي تتم بها، وقد أكدت أن نجاح هذه الصناعة يتوقف على ثلاث مراحل، تعتمد المرحلة الأولى على خبرة ومهارة الحطاب الذي نعتبره النجار الأول، وبتحتم عليه اختيار الخشب المناسب وقطعه بمهارة وجلبه من الغابات إلى ورشات النجارة؛ والمرحلة الثانية تعتمد على النجار صاحب الورشة، الذي يمتلك المهارة ويتقن قطع ونشر وشق الخشب، مما يستدعي من النجار في المرحلة الأخيرة تركيب الألواح وتسميرها لتصنيع الأدوات والآلات التي يحتاجها الناس (الدرجيني، دون تاريخ: ج 2، 398).

الجدير بالذكر كثرة دور الصناعة وفي مقدمتها صناعة المراكب والسفن بالمدن المشرفة على البحر، بفضل كثرة غاباتها وتنوع شجرها، وقد اشتهرت الكثير من مدن المغرب بهذه الصناعة وإنتاجها لأجود المراكب البحرية وفي مقدمتها مدينة بجاية، وتنس، ومرسى الدجاج (الكرخي، دون تاريخ: 45؛ الإدريسي، 2010: م 1، 252، 259، 260)، وأرشقول (الإدريسي، 2010: م 2، 534)، وغيرها من المدن لامتلاكها أجود أنواع الشجر، التي تحتاجها هذه الصناعة كشجر الزان والأرز؛ ونظرا للحاجة المتزايدة لتوفير المراكب التجارية والعسكرية أولت الدول المغربية عناية بإنشاء دور صناعة السفن في العديد من المدن مستفيدة بما تزخر به هذه الأقاليم من كثافة الغابات واحتوائها على مختلف أجود أصناف الشجر (عز الدين عمر موسى، 2003: 232).

لم يقتصر الأمر على صناعة المراكب والسفن، بل اشتهرت الكثير من أمصار بلاد المغرب باحتوائها على معامل ومنشآت ودور صناعة متنوعة اعتمدت بشكل أساسي على تصنيع الخشب، مما جعل منها قطبا صناعيا استقطبت الصناعات من كافة الأقاليم، وصارت مقصدا للناس من كل الآفاق كمدينة برقة، وقابس، وتونس (ابن حوقل، 1939: 67، 70، 73)، وطبنة، والقلعة، وبجاية،

وغيرها من بلاد المغرب (الإدريسي، 2010: م 1، 260، 263)؛ وبناءً على ذلك اجتهدت الدول المغربية في الحفاظ على الثروة الغابية وتأمينها من كل الأخطار (صالح محمد فياض، 1998: 110).

علاوة على ذلك، اشتهرت بلاد المغرب بإنتاج أجود أنواع القطران والزفت، فقد كانت مدينة بجاية "يُجلب إليها من أقاليمها الزفت البالغ الجودة والقطران" (الإدريسي، 2010: م 1، 260). وكذلك مدينة برقة امتازت بصناعة أجود أنواع القطران (ابن حوقل، 1939: 67)، وبفضل كثرته وجودته كان ينقل إلى باقي الأقاليم لكثرة الطلب عليه، وهذا ما كان عليه حال العديد من مدن بلاد المغرب؛ وفيما يتعلق بصناعة القطران والزفت أفادت بعض المصادر بطرق وآليات هذه الصناعة، فقد كان القطران يستخرج من عروق بعض أنواع الشجر كالعرعر، والعُثم، والتَّالِب، وآلية عمل ذلك تقوم على استخدام الفؤوس وتتشير القشور وتقطيعها ثم نقلها إلى مكان مخصص لهذه العملية متصل بمصفاة، ويتم إشعال النار في الحطب، ويغطى رأس أو فتحة ذلك المكان الذي يشبه الفرن حتى لا يخرج البخار، ويُشوى العرعر ويُحمى، فيرشح ويخرج من المصفاة في بادئ الأمر سائل قليل السواد رقيق خفيف الرائحة، ثم يخرج من بعده القطران؛ وتجدر الإشارة إلى أن أجود أنواع القطران الذي يستخرج من شجر العرعر، أما الزفت فيستخرج من شجر الصنوبر والأرز، وغالبا ما يخرج الزفت بعد خروج القطران وانقطاعه، ويتميز الزفت عن القطران بكونه ثخين شديد السواد (الدَّيْنُورِي أبو حنيفة، 2009: ج 3، 99، 100، 102).

وتجدر الإشارة إلى كثرة فوائد القطران والزفت، فكان القطران يستخدم في علاج بعض الأمراض ويدخل في تركيب العديد من الأدوية، وعلى سبيل المثال كان يستخدم كعلاج لمرض العُرم، ومرهم لتليين الجلد؛ أما الزفت كان له استعمالات عديدة أهمها تزييت المراكب والسفن، لما يتمتع به من خاصية منع تسرب الماء في الخشب، والجدير بالذكر استخدام النار في تجميد زفت القطران، حيث يبس فيكسر ويخزن إلى وقت الحاجة، وفي الوقت الذي يحتاجون

إليه، يضعونه في لبن غير مجمد لإذابته ويصبح قابلا للاستعمال مرة أخرى (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 100، 102، 103).

لم يقتصر استغلال الغابات على القطران والزفت، بل كذلك الحصول على الصمغ، والمعافير، واللثا، والعلوك، إلا أن كيفية الحصول عليه تختلف تماما، فلم يكن يستخرجه الناس، بل كان يخرج الشجر من تلقاء نفسه، وفي هذا السياق نشير إلى أن المعافير حلو كالسكر، واللثا تسيل وتجري مجرى العسل، أما اللك يعتبر أحد أنواع الصمغ يلف العود ويلبسه كالقرف، فيقوم الناس بجمعه وطبخه فيستخرج منه اللك، الذي له استعمالات كثيرة أهمها استخدامه في صبغ الجلود (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 85، 90، 99)؛ فضلا على ذلك، استخدم شجر القرظ في دباغة الجلود، وهذا ما كان معمولاً به في معامل الدباغة ببلاد المغرب مثلما كان الحال في معامل مدينة قابس (ابن حوقل، 1939: 70)، كما استخدم نبات غضار في تحضير الصبغة مثلما كان معمولاً به في الكثير من الأمصار كمدينة تونس (ابن حوقل، 1939: 73).

وكان جبل ميسون المطل على مدينة بجاية يحتوي على أنواع مختلفة من الشجر والنبات خاصة ما يندرج ضمن الاستعمالات الطبية وصناعة العقاقير مثل شجر الحُضض، والبرباريس، والإفستين، والقسطون، والقنطاريون الكبير، والرزاوند (الإدريسي، 2010: م 1، 259)؛ وكان ماء الكافور يستخرج من عقد خشب شجر الصنوبر وقشور شجر الكندر، ويستعمل ماء الكافور في صناعة العديد من الأدوية (أبو عبد الله السقطي المالكي، د. ت: 38)؛ ولابد من الإشارة إلى قيام قبائل صنهاجة بتصنيع قوالب من عود الشجر تسمى الرؤوس، كانت تستخدم لوضع العمائم عليها، فتحافظ على شكلها وهيأتها (مؤلف مجهول، د. ت: 129).

الجدير بالذكر وجود نوع من الشجر يعرف بشجر "أرقان" في جبل درن بالمغرب الأقصى، وهذا الشجر عظيم كبير الحجم يشبه شجر الإحاص من حيث عظم حجمه وكبر أوراقه، وينتج ثمارا تشبه إلى حد كبير ثمر شجر الليمون، إلا أنها حامضة المذاق ولا تتضح، بها نواة شبيهة بحبة الزيتون، ولهذه الثمرة فائدتين:

الفائدة الأولى تكمن في اتخاذها علفا للماعز؛ والفائدة الثانية تكمن في النوى التي تتركها الماعز بعد أكل الثمار، حيث تجمع وتغسل وتندق جيدا، وتعتبر فينتج عن هذه الصنعة دهن صاف طعمه مر به حرقة، يستعمل كسراج للقناديل، كما أنه يغلى به الإسفنج في الأسواق لتطيب رائحته الكريهة ومذاقه المر (الإدريسي، 2010: م 1، 230، 231).

وبعد شجر القرظ من أشهر أنواع الشجر، التي كان يكثر عليها الطلب في أسواق العديد من بلدان العالم، فقد كان ينقل من بلاد المغرب إلى أسواق بلاد المشرق (الجاحظ، 1935: 27)، وكذلك شجر الزان الذي كان يحمل من المناطق المحاذية لمدينة عنابة إلى أسواق إفريقية (البكري، 2003: م 2، 233)؛ وكان القطران ينقل من أماكن صنعه في الغابات إلى أسواق المدن والقرى، وقد شهدت تجارة القطران والزفت ازدهارا واسعا في بلاد المغرب وخارجها، وفي هذا السياق نذكر أن القطران والزفت كانا ينقلان إلى أسواق مدينة بجاية من الغابات المحدقة بها، والذي يعد من أجود الأنواع (الإدريسي، 2010: م 1، 260)، ونفس الحال ينطبق على مدينة برقة، التي كان يجلب منها إلى الكثير من أسواق بلاد المغرب (ابن حوقل، 1939: 67)؛ وكان العطر يسوق على يد تجار المغرب مثلما كان الحال بالنسبة لتجار أغمات (الإدريسي، 2010: م 1، 232).

وقد أشارت العديد من المصادر إلى أن القطران يعد من أهم السلع والبضائع، التي كان يجلبها التجار من وارجلان إلى أسواق مدن بلاد الصحراء (الزهري، دون تاريخ: 127)؛ وعلى الأرجح أن الصمغ واللک والمغافير واللثا والعلوك كانت تجمع من شجر الغابات وتحمل إلى الأسواق (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 86، 90، 99)؛ وأفادت بعض المصادر باستخدام خشب شجر العرعر في بناء آبار الماء (البكري، 23: م 2، 254)، وكذلك استخدام خشب شجر القنب في تصنيع آلات صيد المرجان (الإدريسي، 2010: م 1، 290، 291)؛ وقد تضمنت بعض كتب النوازل معلومات تفيد بتربية النحل في الغابات (ابن ورد الأندلسي، 2009: 106).

وذكرت بعض كتب الفلاحة استخدام بعض أنواع الشجر في حفظ وتخزين المنتجات الزراعية، فمثلا كان يستخدم رماد حطب شجر البلوط في حفظ الشعير من التسوس، ووقايتة من كافة الآفات، كما استخدم خشب شجر الصنوبر في حفظ الدقيق من التلف والفساد (ابن العوام الإشبيلي، 1802: 679، 681)؛ ويعد خشب شجر البلوط من أهم المواد التي تدخل في بناء الأرحاء (صالح محمد فياض، 1998: 111)؛ إلا أن الثروة الغابية التي تزخر بها بلاد المغرب تعرضت إلى الكثير من الأخطار، وقد دلت على ذلك المعلومات التي تضمنتها بعض المصادر وتشير إلى خطر التسوس، الذي أصاب الشجر وتسبب في تلفه (أبو الأصبع عيسى، 207: 354).

نستخلص مما سبق، أهمية الغابات التي لا تعد ولا تحصى، كان أبرزها المساهمة المعتبرة في الاقتصاد باعتبارها موردا أساسيا لبعض المواد والمنتجات التي تقوم عليها الصناعة والتجارة وتخدم الفلاحة، ووفرة الغابات وكثافتها ساهم بشكل فعال في ازدهار الاقتصاد المغربي.

3 – أهمية الغابات في المجتمع:

ارتبط نمط معيشة المجتمعات البشرية بالثروات الطبيعية، وقد سعى الإنسان دوما لاستغلال الطبيعة في توفير حاجياته وتحسين ظروف حياته، وكان من ضمن ذلك الغابات وما قدمته من منافع إلى المجتمع. ومن هنا نساءل: فيم تتمثل المنافع التي استفاد منها المجتمع في استغلال الغابات؟ وأين تكمن أهمية الغابات في حياة المجتمع؟

بالإمكان الجزم على أن أهمية الغابات لم تقتصر على الاقتصاد، بل أن أثرها كان بارزا على الحياة الاجتماعية، والواقع أن علاقة الغابات بالمجتمع كانت وطيدة لارتباطها بمتطلبات الناس ومعاشهم؛ وهذا يتضح جليا حسب قول ابن خلدون: "... إن الله سبحانه وتعالى، جعل للأدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضرورياته أو حاجياته، وكان منها الشجر، فإن له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد، ومن منافعها اتخاذها خشبا إذا يبست، وأول منافع الخشب أن يكون وقودا للنيران ومعاشهم وعصيا للاتكاء والذود

وغيرها من ضرورياتهم، ودعائم لم يخشى عليه من أثقالهم، ثم بعد ذلك منافع أخرى لأهل البدو والحضر..." (ابن خلدون عبد الرحمن، 2004: م، 427، 428). الجدير بالذكر اعتبار الغابات ضرورة اجتماعية لها ارتباط وثيق ومصيري بحياة الإنسان، ومن ذلك استغلال ما تجود به الغابات في إنارة البيوت والأزقة والمساجد والمستشفيات وغيرها بالمناور المتخذة من بعض أنواع الشجر كالأرز، والعُثم، والمطّ، كما استفاد الناس من الحطب في إشعال النار، التي تعد أحد أهم أدوات وضروريات الحياة البشرية، التي تدرج ضمنها التدفئة وطهو الغذاء ودفع خطر الحيوانات المفترسة؛ فكان يتخذ زناد الإشعال من عود بعض أنواع الشجر كالدقلى، والعفار، والمرخ، والحماط، وقد استخدم الناس قطعة خشب وسكين، الذي أحدثوا به ثقباً في قطعة الخشب، فكان الرجل يثبتها برجليه ويضع الزناد في الثقب مع القليل من التراب، ليساعد في عملية الاحتكاك، ويقوم بفتل الزناد ويضع عليه بعض القش، الذي سرعان ما يشتعل بفعل الحرارة المتولدة عن الاحتكاك؛ وهذه تعد إحدى أهم الطرق التي اعتمدها الناس في إشعال النار باستخدام مواد مصدرها الغابات (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 102، 103، 122، 124، 125، 127).

وقد أحسن المجتمع المغربي استغلال الغابات في تلبية حاجياته الضرورية، وقد دلت الكثير من الشواهد التاريخية على اقتناء الموائد، والكراسي، والصحون، والكؤوس، والمغارف، والملاعق، والمهاريس، والأقفاس، وكذلك قطعة خشب كانت تستخدم في تقطيع اللحم وصنع الكعك، وكذلك توفير النوافذ، والأبواب، والأقفال، وسقف البيوت، وغيرها من لوازم البيت المصنوعة من مادة الخشب، وقد استخدم في ذلك العديد من أنواع الشجر، كشجر الزان، والبلوط، والصنوبر، والبطم، والعناب، والزيتون، والأرز، وغيرها من أنواع الشجر المتوفرة في بلاد المغرب (جودت عبد الكريم، 1992: 116، 117).

تجدر الإشارة إلى اهتمام المجتمع المغربي بالفن، الأمر الذي دفع الناس إلى الإقبال على صناعة الآلات الموسيقية والطبل والدف، وكل هذه الأدوات مادتها الأساسية الخشب، وكانت تشهد رواجاً كبيراً خاصة في المناسبات ومواسم

الأعياد، التي عرفت انتشارا واسعا للأدوات الترفيهية والألعاب الخشبية (عز الدين عمر موسى، 2003: 232، 233، 236، 237)؛ وقد تضمنت كتب السير والتراجم معلومات قيمة عن استغلال ما تتوفر عليه الغابات في تسخين الماء وإنارة المصابيح (الشماخي، 2009: ج 2، 703)؛ وقد أوجد المجتمع في ما تنتجه الغابات علاجا للكثير من الأمراض، التي عانى منها كافة شرائح المجتمع من أمراض جلدية وأمراض باطنية، فمثلا استخدم القطران في علاج مرض العرّ وكذلك تليين الجلد (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 99، 100، 102).

لم يقتصر الأمر على هذا، بل استخدم النساء بعض ما ينتج من الشجر والنبات في الزينة، ومن ذلك إقبال نساء المصامدة على دهن مستخرج من نوى ثمر شجر ارقان، اتخذن منه مرهما يدهن به رؤوسهن، فيقوى الشعر ويتحسن ويحافظ على سواده؛ وهذا وجه من أوجه ما يتخذ في زينة نساء بلاد المغرب (الإدريسي، 2010: م 1، 231)؛ ومن ذلك أيضا استخدام نبات الدووم في تجميل البشرة، حيث يقمن بتلطixه على وجوههن؛ وتجدر الإشارة إلى أكل الناس القنبيط، الذي يستخرجونه من ثمر شجر الصنوبر (الدينوري أبو حنيفة، 2009: ج 3، 89، 100).

وقد تضمنت كتب الفقه والنوازل معلومات هامة تفيد باستغلال سكان بلاد المغرب الغابات كمرعى لماشيتهم ودوابهم وكذلك محتطبا (المجموع المذهب، 2009: 175)، إلا أن الفوائد والمنافع التي توفرها الغابات جعلت منها بؤرة توتر تثير النزاع بين الناس وتخلق اضطرابات اجتماعية بسبب الطمع والجشع المتزايد لامتلاكها، ووقوع الخلاف حول القسمة مما استدعى تدخل الفقهاء والقضاة لحل الخلاف وإنهاء النزاع حول الغابات، ولهذا لجأوا إلى تحديد القسمة على أساس العمارة، وقد جاء في إحدى النوازل: "الشعراء تكون لأهل قرية يريدون قسمتها، ولا يعلمون لما لهم من عمارة القرية أصلا إلا ما بيد كل واحد منهم من العمارة. كيف تقسم بينهم؟..." (ابن رشد، 1987: ج 1، 833).

خلاصة القول، تعددت منافع الغابات في المجتمع المغربي، ولم تقتصر منافعها على سكان المدن، بل شملت سكان الأرياف والبادية، وتعددت مجالات

استعمالها حيث لم تتوقف على تلبية حاجيات ومتطلبات المجتمع من أدوات ووسائل منزلية وأمنية وترفيهية، بل كذلك في تحضير الأدوية والعقاقير والزينة، وينم ذلك على كونها شريان حياة المجتمع المغربي.

خاتمة:

في ختام الدراسة نقول أن المنزل الرفيعة التي نالها المغرب الإسلامي، والشهرة الواسعة التي تمتع بها، لم تكن من فراغ بل أن الفضل في ذلك يعود إلى امتلاكه موارد طبيعية متنوعة، كان أبرزها الغابات الموحشة الكثيفة المتصلة المحدقة بالمدن والقرى.

أهم مخرجات هذه الدراسة الإشادة بالمنافع الجمة والفوائد المتعددة التي برزت بوضوح في البناء والعمارة، التي شهدتها أقاليم بلاد المغرب، بحيث ارتبط الإنتاج الصناعي والنشاط التجاري والفلاحي بوفرة أنواع معينة من الشجر الذي جادت به بلاد المغرب.

ثراء تاريخ وتراث بلاد المغرب بالكثير من الشواهد الدالة على المساهمة الفعالة للغابات بما جادت به من أصناف الشجر وأنواع النبات، وما جلب منها من خيرات ونعم كان لها التأثير والأهمية البالغة في الوضع الاقتصادي والاجتماعي، والذي ساهم بشكل واضح في بناء الحضارة المغربية.

اتخاذ مقدار حجم إسهام الغابات في الحياة الاقتصادية والاجتماعية معيارا في تحديد مستوى التقدم والتفوق الحضاري، وقياس مدى تأثيرها على مجتمعات العصر الوسيط خاصة المجتمع المغربي، وهذا على اعتبار أن الغابات تشكل في هذه الفترة مصدرا أساسيا لمادة الخشب التي لا يمكن الاستغناء عنها في البناء والعمارة، ومنتجات أخرى تساهم في الصناعة والتجارة والفلاحة.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو الأصبع، عيسى، (2007)، ديوان الأحكام الكبرى أو الإعلام بنوازل الأحكام وقطر من سير الحكام، تحقيق يحي مراد، القاهرة: دار الحديث.

- الإدريسي، أبو عبد الله محمد، (2010)، *نزهة المشتاق في اختراق الآفاق*، ط 1. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- البكري، أبو عبيد الله، (2003)، *المسالك والممالك*، تحقيق جمال طلبية، ط 1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو، (1935)، *التبصر بالتجارة*، تعليق حسين عبد الوهاب، ط 2. مصر: المطبعة الرحمانية.
- الدينوري، أبو حنيفة، (2009)، *كتاب النبات*، تحقيق برنهارد لفين، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت: مؤسسة الريان.
- الدرجيني، أبو العباس أحمد، (د ت)، *طبقات المشايع بالمغرب*، تحقيق إبراهيم طلاي، قسنطينة: مطبعة البعث.
- ابن ورد، أبو القاسم أحمد، (2009)، *كتاب الأجوبة*، تحقيق محمد بوخبزة، ط 1. الرباط: دار الأمان.
- الزهري، محمد بن أبي بكر، (د ت)، *كتاب الجغرافية*، تحقيق محمد صادق، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.
- ابن حوقل، أبو القاسم علي، (1939)، *صورة الأرض*، ط 2. ليدن: مطبعة بريل.
- اليقوبي، أبو العباس أحمد، (1890)، *كتاب البلدان*، ليدن: مطبعة بريل.
- الكرخي، أبو القاسم إبراهيم، (د ت)، *المسالك والممالك*، بيروت: دار صادر.
- موسى، عز الدين، (2003)، *النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري*، ط 2. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- المقدسي، شمس الدين، (1906)، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، ط 2. ليدن: مطبعة بريل.
- المجموع المذهب في أجوبة الإمامين ابن وهب وأشهب، (2009)، ط 1. المغرب: منشورات وزارة الأوقاف.
- مؤلف مجهول، (د ت)، *الاستبصار في عجائب الأمصار*، تعليق سعد زغلول، بغداد: دار الشؤون الثقافية.

-السقطي، أبو عبد الله، (د ت)، في آداب الحسبة، باريس: مكتبة إرنست ليرو.

-عبد الكريم، جودت، (1992)، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9 - 10 م)، الجزائر: ديوان المطبوعات الجزائرية.

-ابن العوام الإشبيلي، أبو زكرياء يحيى، (د. ت)، كتاب الفلاحة، إسبانيا: مكتبة ريال مدريد.

-فياض، صالح، (1998). " الزراعة والتصنيع الزراعي في المغرب منذ القرن السادس الهجري ". مجلة مؤته للبحوث والدراسات، المجلد 13 (ع 7)، ص. ص 101 124.

-الرقيق، القيرواني، (1994)، تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق محمد زينهم، ط 1. القاهرة: دار الفرجاني.

-ابن رشد، أبو الوليد محمد، (1987)، فتاوى ابن رشد، تحقيق المختار بن الطاهر، ط 1. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

-شوقي، ضيف، (1995)، عصر الدول والإمارات، ط 1. القاهرة: دار المعارف.

-الشماعي، بدر الدين، (2009)، كتاب السير، ط 1. بيروت: دار المدار الإسلامي.

-ابن خلدون، عبد الرحمن، (2003)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ط 2. بيروت: دار الكتب العلمية.

-ابن خلدون، عبد الرحمن، (2004)، المقدمة، بيروت: دار الفكر.
